بهاء الدين الطود و "البعيدون" القريبون

عبد الرحمن. م. الربيعي

-1-

رغم أن رواية "البعيدون" هي العمل المنشور الأول للمحامي الأديب المغربي بهاء الدين الطود لكنه كتبها بعد الأربعين من عمره فكأنه أراد لتجربته الكتابية أن تتطور وخبرته الحياتية أن تزداد غنى وامتلاء ليأتي عمله وهو يحمل (الإضافة) هذا الهاجس الذي يعيشه كل الكتاب الجادين.وليس الطود وحده من نشر وكتب بعد الأربعين، فروائية تشيلي البارزة ايزابيل الليندي فعلت ذلك، وذكرت أنها بدأت الكتابة بينما كانت قريناتها يرتقن جوارب أحفادهن.

ومن العرب نذكر الصديق عبد الرحمن منيف الذي أخذته السياسة والنفط وإذا به يبدأ (حملته) الروائية بعد الأربعين بحيث أنجز رصيدا روائيا فاق في عدده حتى أولئك الذين بدأوا قبله بعقود.

صدرت رواية "البعيدون" في طبعتها الأولى ضمن سلسلة روايات الهلال المصرية المعروفة، وتصفه الدار الناشرة (يجذبك من السطر الأول لتكتشف عند السطر الأخير من روايته أنك كنت طيلة الوقت واقعا تحت سيطرة روائي قدير يمسك كل الخيوط الروائية في يده، حتى في اللحظة التي يبدو فيها أنه يفلتها).

ثم تصدر "البعيدون" في طبعة مغربية وعلى غلافها الأخير هذه المرة انطباع من الروائي والقاص وكاتب السيرة الأشهر في أدبنا العربي واعني به الصديق محمد شكري الذي يقول: "وأنا أقرأ "البعيدون" اكتشفت أن صاحبها قد أتى إلى الكتابة عن طريق الحس المتبلور، فأجاد في صناعة الدهشة الصادقة الحضارية بين الشرق والغرب بقدر ما أجاد في تكثيف الصدام بين ثقافة الأنا والآخر في سرد روائي لين وراق، وبأسلوب أخاذ شاعري وشفاف، لا يقوى عليه إلا من يجيد حبكة القبض على جمرة الخيط الروائي، وتلك هي اللعبة السحرية التي عرف بهاء الدين الطود كيف يستحوذ عليها".

-2-

إذا كان عدد من نقادنا العرب ما أن تذكر العلاقة العربية مع أوربا في الرواية إلا وذهبوا إلى أعمال معينة يجري تكرارها منذ اكثر من ثلاثين سنة فكأن الروائيين العرب لم يكتبوا عداها، فإن في هذا دليلا على إفلاس هؤلاء النقاد أو توقفهم عن المتابعة، وهذا ينطبق على الرواية العربية التي ظهرت في العقود الأخيرة إذ هم بعيدون عنها تماما. وإن قرأوا عملا فإنما يقرؤون لبعض معارفهم ويكيلون

أكوام المديح لأعمال عادية والسبب في كونهم لم يطلعوا على الأعمال الأخرى التي تتجاوزها ويكتفون بقراءة أعمال من يعرفونهم.

وعدا أعمال سهيل إدريس و الطيب صالح ويحيى حقي وتوفيق الحكيم وأسماء أخرى ظهرت أعمال عديدة ناقشت العلاقة بين الشرق والغرب، العربي في أوربا، والأوربي في بلد عربي، وقد تطرقت هذه الأعمال إلى ما استجد وانضاف في هذه العلاقات لا سيما وأن هناك ملايين العرب الآن يعيشون في أوروبا وأمريكا وأستراليا وكندا وأمريكا اللاتينية، وبينهم عدد كبير من الكتاب المعروفين، و لم يعودوا كما كانوا في الأربعينات والخمسينات مجرد عشرات.

وهؤلاء بالتأكيد كتبوا عن حياتهم الجديدة، بما لها وما عليها، ورواية بهاء الدين الطود هذه هي إحدى هذه الأعمال. ورواية "البعيدون" تعكس ثقافة عالية لكاتبها، في الموسيقى والفن التشكيلي والأدب، ومن النادر جدا أن نقرأ عملا روائيا يقدم لنا عمقا ثقافيا ومعرفة واسعة بتلقائية هي من صلب العمل نفسه دون أي(تعالم) على القارئ أو(تعال) عليه.

هم مجموعة من الطلبة المغاربة الذين يدرسون في مدريد، ولكن المحور فيها "إدريس" وصديقه الذي جاء مدريد ليدرس الطب، وبعد ذلك عاد لمدينته "القصر الكبير" ليفتح عيادة فيها، وتنتهي مرحلته الأوروبية. لكن إدريس أخذته أوروبا، صادرته، وكان محبوبا من النساء، له أكثر من علاقة في وقت واحد،ولا يقيم علاقة إلا مع الفتيات المتميزات جمالا ونفوذا وموهبة. هناك بيلار زميلته في كلية الآداب، وهناك أيضا ماري كارمن التي"كانت مشهورة في مسبح الجامعة بعزفها على القيثار وبوثوقها من جمالها إلى حد الغرور".

أما اللقاء الأول بين إدريس وزميله طالب الطب فكان في مطعم الجامعة، وقد تطور اللقاء ليصبح صداقة عميقة، كان إدريس خلالها أشبه بالمريض الذي يخضع لمعاينة مستمرة من زميله، وكلما عرفه اكثر صار في أمره أكثر وازدادت تساؤلاته وتشعبت.

فيوم التقاه حدثه عن وفاة والدته الشابة الذي وصله خبر وفاتها متأخرا، ولكنه ووسط حزنه : "يخطر بباله ارتياد الأوبرا"، ورغم أنه "تعشى باثنتي عشرة بيزيتة" –في المغرب يكتبونها بسيطة وهي العملة الإسبانية المشهورة- فإنه "سيذهب لسماع الموسيقى بألف بيزيتة" !!

وكان إدريس مثار دهشة كل من عرفه(عربا أو إسبانيين)، ويقول عنه طالب الطب انه (كان يبهر آذاننا وينتزع منا إعجابنا ودهشتنا). ومما رواه عنه أنهما كانا يزوران متحف "البرادو" الإسباني الشهير، وهناك التقينا بفرنسيتين (إحداهما صحفية متخصصة في نقد الفن التشكيلي).

وفي حديثهما مع الفرنسيتين أوهم إدريس الصحفية "بان جدته كانت على علاقة غرامية بماتيس أثناء إقامته في العشرينات من هذا القرن في مدينة طنجة" وزاد بأن قال لها: "إنه يحتفظ برسائل كتبها "ماتيس" إلى جدته ولا يرى بأسا من اطلاعها عليها إذا رغبت في ذلك".

ويقول طالب الطب: "ظلت الحسناء الفرنسية المسكينة فاغرة فاها وهي تسجل رقم تليفونه في بلاهة ". ويقول أيضا: "الحقيقة أنا أيضا كنت قد صدقت هذه الرواية، ذلك أني لم أكن أفرق بين حديثه ومزاحه مما كان يدعوني لاستفساره أحيانا وكأنني تلميذ أمام أستاذ".

وهنا نعرف أن طالب الطب مغرم بالموسيقى الأندلسية فكان لابد من أن تستكمل المعادلة حيث يقول : "ومثلما أدخلني إدريس إلى عالم الموسيقى الكلاسيكية، أدخلته إلى عالم الأندلسيات في مغارات الغجر".

ويربط طالب الطب (الإيقاع) بما كان للعرب في الأندلس لذا يقول شارحا: " هذا إرث أجدادنا بجميع مصنفاته، انتفاض الراقصين والتواء أجسادهم ودقات أرجلهم ألا تروها احتجاجات صارخة تبكي شيئا ضاع و لم يعد؟".

وسيظل "الوجع الأندلسي" حاضرا في هذه الرواية، لا بل إنه يمتد إلى وجع عربي آخر هو "الوجع الفلسطيني" ومن ثم الوقوف أمام الحيرة الكبيرة (العربي المسلم) و (اليهودي)، ومرد الحيرة إلى أن السؤال برز بشكل قوي بعد تكوين الكيان الصهيوني العنصري المسمى(إسرائيل).

-3-

كان بعض الطلبة المغاربة و الإسبان بمضمون العطلة الصيفية في إنكلترا حيث يعملون في المزارع مقابل أجر معقول يجمعون قسما منه ويعودون به إلى مدريد كي يصرفوه حتى حلول عطلة أخرى لتبدأ الرحلة من جديد.

وكان إدريس قد ذهب في إحدى العطل مع صاحبه طالب الطب (الراوي) وصديق إسباني مشترك إسمه "خوصي عباد" ورابع تعرفوا عليه في الطريق فكان لهم خير عون. وفجأة اختفى إدريس في إنكلترا،ويقول طالب الطب وهو الأقرب إليه: "لم أعر أمر اختفائه أهمية، فقد كان يقيني بأنه عائد بعد بضعة أيام".

لكن طول مدة غيابه أثار التساؤلات، فهناك من ظن انه سيعود بعد عطلة الصيف، وأخر رأى بأنه "من المؤكد التقى بإحداهن فاختفى معها في بلد ما، وسيعود بعد أن يمل منها".

ثم ذهبت التوقعات أبعد وبعد أن مرت ثلاثة أشهر على غيابه "قيل إنه اختفى في إحدى دول أمريكا الجنوبيةأ وقيل في الولايات المتحدة، وزعم أحدهم أنه يعمل بالتجارة في إحدى دول الخليج".

والسبب في كل هذه التوقعات المتناقضة والبعيدة عن بعضها أنه شخصية إشكالية، أو أن هناك علامة استفهام تقترن باسمه،وحتى أقرب الناس إليه لا يستطيعون سبره والوصول إلى جواب عنه.

لكن الأيام بتاريخها جعلت ادريس "يتلاشى عن أذهاننا شيئا فشيئا" –كما يقول طالب الطب- لكنه ورغم مغادرتهم لمدريد بعد أن أتموا دراستهم لم ينسوا ادريس هذا فقد (ظل ملازما لكل ذكريات مدريد) لأنه "أحد الأعمدة التي تقوم عليها تلك الذكريات".

-4-

مر الزمن، حتى أصبحت المسافة بين غياب ادريس واليوم الذي يتحدث فيه الطبيب المشهور في مدينة "القصر الكبير" المغربية ثلاثين عاما.

وذات يوم عاد الطبيب إلى أوراقه القديمة في سنوات مديد، الصور والرسائل، وكان ادريس حاضرا فيها، يقول: "ثلاثون عاما قد مرت على اختفائه، وها أنا الآن أعثر عليه طريا معزولا في ركن من ذاكرتي، كأنه كتاب عن ملحمة مثيرة أبهرني جزؤها الأول، فبت لا أطيق الصبر دون أن أعرف جزءها الثاني".

وتتقد من جديد الرغبة في نفس الطبيب لمعرفة الجزء الثاني من "ملحمة" إدريس. كاتب أصدقاء مشتركين، وجاءه رد واحد من "خوصي عباد" يعلمه فيه بان إدريسا "يعمل اليوم محررا في مجلة إنجليزية تعنى بالإستشراق، تصدر شهريا في لندن وتدعى "فواصل"".

ويقرر بأن يذهب إلى لندن لرؤيته،ونفذ قراره لاسيما وأنه اليوم طبيب ميسور الحال.

كان يتساءل عن الحالة التي عليها إدريس الآن، وما الذي تغير فيه، ويقول: "حتى تلك اللحظة كان إدريس لا يزال متجليا في ذهني شابا نحيلا يستولي على إعجابك بهيئته وقامته".

كان الزمن ملغيا، وكأن ثلاثين سنة لم تمر، ولذا يخطر بباله أن يرى إدريس بهيئة أخرى وأن السنوات الثلاثين قد تركت بصماتها عليه.

وعندما تقابلا في مكتبه الدافئ ذي الرفوف الخشبية الداكنة العامرة بالكتب والمجلات كان الطبيب مرتبكا وهو يقول عنه: "بدا أمامي غصنا خريفيا من ربيع ولى وانقضى ربيع أخذ معه أريجه ونضارته، سلب منه بهجة طلعته وشيئا ما كان مشعا في محياه".

إن الزمن وراءنا، ونتصرف غالبا وكأنه لم يمض بنا، ولم يجردنا من أسلحتنا، بل وكأنه لم يغيرنا، فهذا إدريس الوسيم "شيب غزير غطى رأسه ففضح السور الزمني الذي فصله عن إدريس المحنط في ذاكرتي منذ أيام الأحلام الوردية التي كنا نحياها). لكن الطبيب مع هذا رأي في إدريس " مسحة من هيبة خفية، هيبة المثقف المتمكن، رجل بجاذبية الكهولة الرضية".

تعمر الرواية بتفاصيل دقيقة تنم عن قدرة الروائي بهاء الدين الطود في رسم شخصياته من الخارج ومن الداخل فكأنه قد غادر مقعد المحاماة -مهنته التي يحترفها- إلى مقعد الطبيب الجراح الذي يسبر المظهر الخارجي للجسد البشري وما في داخله.

يقول الطبيب :"كان علي أن أبذل جهدا حتى اعتاد ادريس الجديد، شاربه الموخوط بالشيب، ندوب تلوح من تحت نظارته الطبية" ونرى الراوي الطبيب عندما يتحدث عن لندن فإنه يسمي الأماكن بأسمائها مما يجعل قارئه يشعر بحميمية الأماكن.

لقد غادر مكتب ادريس وتمشيا في "فليت استريت" ثم جلسا في حانة إنجليزية عتيقة في حي "هاستيد"، ويربط بين هذه الأماكن وأماكن مدريدية، مثل مقهى "مانيلا"، نادي "سامون"، مقهى "خيخون"، جادة "كاستيا"، حانة "ابوبليتو"، وهكذا. وربما هجس ادريس لما أحسه صاحبه من تغير رسمه الزمن على ملامحه وهيئته فقال مفسرا كل هذا ووفق ما توصل إليه: "إن الزمن ليس وحشا يبطش بنا كما تظن، إنه مجرد وهم، من صنع الإنسان. الإنسان هو الذي أبدعه ففصله إلى ساعات وأيام وسنوات وقرون، فقبل أن يعثر الإنسان على نفسه في الأرض لم يكن هناك زمن، وبعد أن نرحل فلن تبق حاجة إليه، إنه أكذوبة مثل أكاذيب كثيرة أصبحت حقيقة. الإنسان بعد أن يتقدم به العمر قد يضطر إلى استبدال مقاس قميصه زيادة أو نقصانا، الشيء نفسه يحتاجه في مـــأكله ومشربه وفي كل أمور حياته، بل حتى عند مماته".

-5-

يتحول الطبيب من فندقه إلى شقة إدريس بناء على رغبته، ويصف شقته بأنها صغيرة، ولكنها تجمع المغرب بإنكلترا، ففي وسط الصالون الإنكليزي القديم هناك (زربية مغربية شاحبة).

وهناك صورة لإدريس تجمعه مع ثلاثة من أعضاء فرقة "البيتلز" الغنائية، وإلى جانبه "سيدة جميلة" ظنها بيلار الاسبانية، لكنه علق:"أنها "ايستر" صديقته" كما حدد عمر الصورة بأنها التقطت قبل خمس سنوات.

ويذهب الطبيب إلى مقارنة ما هو مغربي بما هو انكليزي في هذه الشقة، "رسم زيتي بألوان زاهية لساحة مغربية عتيقة تشبه ساحة المرس في مدينة القصر الكبير"، هناك أيضا "بابور شاي نحاسي ومرآة كبيرة بإطار خشبي ذي زخرفة مغربية". فيعلق الطبيب :"جميل هذا الزواج بين الأنا والآخر". وعندما لم يعلق إدريس على ما فاه به بأنه "قد يكون به رأي خاص فيما أثرته عن قضية الأنا الآخر".

هنا أيضا استعراض لثقافة المؤلف التشكيلية من خلال الملصقات عن معارض فنية لبعض المشاهير وقد زينت جدران الغرفة،ويحكي عن هذه الأعمال بشكل غير مقحم، يؤكد التذوق المتلذذ سواء من اختيارات إدريس أو اندهاش الطبيب بها.

يقول الطبيب: " الغرفة قاعة عرض للفنون التشكيلية فكيف للشخص أن يخلد للنوم وعلى رأسه كل هؤلاء؟".

ونجد هناك تفاصيل عن الفن التشكيلي، فهناك لوحة في غرفة نوم إدريس ظنها الطبيب للفنان المغربي الراحل أحمد الشرقاوي، بل للفرنسي روجير بيير إنما أعمالهما تتشابه إلى حد كبير، والغريب أن أمورا أخرى فكرية تجمعهما دون أن يكونا على علم بذلك،فكما كان الشرقاوي متشبعا بصوفية الحلاج، كان بيير هو الآخر واقعا تحت سيطرة قريبة من صوفية الحلاج".

لا بل إن إدريسا يقدم معلومات تفصيلية تاريخية وفنية عن كل لوحة، وأين نسختها الأصلية...الخ. يقول الطبيب: "راعني شرح إدريس، فلكل عمل يفرد لصاحبه تاريخه الفني".

وأمام لوحة "السيدة ذات العيون الزرق" يتساءل الطبيب عن كيفية حصوله عليها فيكون جوابه: " إنها هدية من صديقة يهودية، مختصة في النقد الفني".

قال جوابه واتجه نحو المطبخ، ويقول الطبيب عنه بأنه ذهب "دون أن يدري أنه تركني في حيرة من أمري، هو الذي كان يجهر أمام أصدقائنا الإسبان بأنه لا يفرق بين اليهود والصهاينة، فما دامت الصهيونية تخدم اليهود، فكل اليهود صهاينة. كان يصر على هذا الدمج مستندا إلى وقائع تاريخية وحديثة سيكولوجية وثقافية، لا يمكنك سوى التسليم بنتائجها."

-6-

بعد أن يغادر الطبيب لندن ويعود إلى القصر الكبير يبدأ بقراءة الأوراق التي أعطاه إياها إدريس وفيها حديث عن حياته بلندن.

هنا يمكن تسجيل ملاحظة ليست في صالح الروائي وهي أن هذه الوسيلة في الكشف عن تفاصيل حياة شخصية روائية من خلال أوراق تركها مطروقة-ومكررة "في الأدب العراقي مثلا رواية الراحل الرائد "ذو النون أيوب" "أبو هريرة وكوجكا"".

وكان بإمكان الروائي الطود وهو الحاذق الماهر في نصه هذا أن يجد وسيلة أخرى ليكشف لنا تفاصيل ما عاشه إدريس في سنواته اللندنية.

وهناك ملاحظة ثانية تتعلق بهذه الأوراق التي حملها الطبيب وهي أنها مكتوبة باللغتين العربية والإسبانية، وهنا كان بإمكان الطبيب أن يذكرنا بهذه المسألة، كأن تكون كلمة غير واضحة، أو جملة كتبها وشطبها وبانت حروف منها، وهذه أمور تجعل النص أكثر حيوية.

و إذا كانت أغلبية الروايات العربية التي تتحدث عن الشرقي أو العربي في أوروبا تبدو وكأنها رحلة "أعضاء ذكورة" ليس إلا، وليست هجرة أفكار (الجو الأفريقي الذي يوجده مصطفى سعيد بطل رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" ودلالاته الجنسية لسحر النساء والإيقاع بهن مثلا) فإن رواية "البعيدون" هي رواية أفكار مقابل أفكار ومن هنا أهميتها، رغم أن إدريس كان محبوبا من النساء، وله علاقات متعددة، لكن هذه العلاقات هي ممارسة لحياة وليست مشكلة يقف عندها وتشكل له هاجسا "وسنورد لاحقا رأيه بالعلاقة مع المرأة".

ومن هنا جاء ثراء روايته "البعيدون" وعمقها الثقافي والأسئلة التي طرحتها ولعل أهمها العلاقة بين إدريس (المسلم) وإيستر (اليهودية).

-7-

عندما أهدى إدريس أوراق مذكراته لصديقه الطبيب قال له: "ربما لن تجد بها أجوبة شافية، أعتقد أننا حين نكتب، نفعل لنجيب عن سؤال محير، أو عن أكثر من سؤال، لكن ما يحدث هو أننا بأجوبتنا قد نثير أسئلة أخرى لا تكون في الحسبان".

وكان إدريس حائرا حتى في الرد على تساؤل الطبيب عن سبب إهدائه هذه الأوراق له، وذكر أنه فكر قبل هذا أن يحرقها. وأوراقه تعكس ردود أفعاله و اقتحاماته وكذلك ثقافته "مثل الحديث بين الأسبانية كريستيان وبينه عن شكسبير ومسرحيته عطيل".

عندما قال لها إدريس: "ها قد مر قرن آخر، بعد خمسة قرون من البحث عنك". والإحالة إلى "الأندلس" الملخصة هنا بامرأة أو المتوهمة- بفتح الهاء- بامرأة، يكون جواب "كريستيان" له:

" وها أنا قد جئتك بنفي لأكفيك مشقة البحث عني".

وعندما تعترف له بأنها تجهل التاريخ لأنها تتخصص بالأدب الإنكليزي يكون تعليقه: " الآداب بدون تاريخ، كالطعام بدون توابل، هل تعلمين أن شكسبير حين كتب عطيل كان يجهل التاريخ، وإلا لكان قد أعطى عطيل دورا مغايرا ونهاية أخرى".

ووسط دهشتها من نقد "المقدس المكرس شكسبير" يقول موضحا: "شكسبير أعطى عطيلا منطق الرجل الأوروبي فسمح بقبول صداقة زوجته للرجال وليس هناك في تاريخ قومي امرأة متزوجة لها أصدقاء رجال".

هكذا تأخذ الحوارات في الروايات مسارات معمقة في كل شأن يجري التطرق له. يقول إدريس عن علاقته بالمرأة: " المرأة بالنسبة لي لعبة جميلة تنبض بالحياة، أتسلى معها، وقد أتسلى بها، لكن ما أن تختفي عن نظري حتى تغيب عن باقي حواسي وعاطفتي وأعود للبحث عن لعبة جديدة".

هنا تتوالى المعلومات عن حياة إدريس في بريطانيا، فقد درس في جامعة لندن، وعمل مساعدا للمستشرق البريطاني "السيركوربين" ثلاث سنوات عندما كان يدرس في جامعة لندن.

ومن ثم تعرف على "المستركورت"، وكانت البداية حوارا معمقا عن الإسلام والاستشراق وفكر "جون وكلف" ونقد إدريس لأفكار بعض المستشرقين الذي وصفهم بأنهم "المرشدون الاستعماريون للغرب".

و لم يكن إدريس يعلم بأن المستركورت يهودي وأن مجلته "فواصل" تبشر بالصهيونية.

وبعد أن أعلن قبوله لإدريس في مجلته أشار لمكتبته وقال له: "يمكنك الإطلاع عليها متى شئت وأردت، فأنا أقتنيها لتقرأ".

وبعد أسبوعين من عمله في المجلة يدعوه المستركورت لتناول الشاي معه في بيته وليتدارس معه مشروعه في كتابة سلسلة مقالات تحت عنوان "شذرات عن الوعي البشري عبر العصور".

وكأن المستر كورت في هذه الدعوة أراد الإيقاع به وفق إحدى وسائل الصهيونية العالمية المعروفة (المرأة) إذ خرجت بصحبته فتاة ظنها إدريس للوهلة الأولى عربية، وقدمها له بأنها ابنة أخته "إيستر" وهي طالبة في مدرسة الفنون المعاصرة.

ويقول إدريس عن حالته عندما سمع الاسم: "لم أقو على تملك ارتباكي، تشتت أفكاري... أسبوعان كاملان وأنا أعمل لمصلحة الرجل دون أن أعرف أي شيء عنه... وإذا كان الرجل يخدم مصالح إسرائيل... كل الغرب يخدم إسرائيل...الخ".

-8-

في أول زيارة لمكتبة جاكوب أو المستر كورت في منزله التي جعلها في متناوله فوجئ بكم من مؤلفات اليهود بالعبرية مع صور أعلامهم القدامى والمعاصرين، وكذلك بالكتب المكتوبة والمترجمة إلى اللغة الإنكليزية التي تهاجم العرب مثل "سراب القومية العربية"، "العرب في علم النفس السيكولوجي"، "الظاهريات وأزمة العقل عند الحاكم العربي" و "العقلية البدوية المعاصرة".

ويقول: "كل عنوان أحسست به أفعى تلسعني". وعندما حضرت إيستر بفستانها الأسود فاجأها ب "جملة" غزل غير مسبوقة مثل: "أنت أشهى ما في هذا البيت، وأشهى ما تضمه هذه الكتب". وظل يطوقها ويقبلها وهو يتوقع أن تبعده عنها رغم أنه يعترف بقوله: "لم تعترني شهوة الجنس بقدر ما اعترتني شهوة استرداد حق ضاع مني أو هكذا خيل لي".

ولعل تبريره هذا مضحك جدا، فهل تحل مشكلة العرب مع إسرائيل بمضاجعة اليهوديات؟! لكنه يكتشف أثناء العناق أنها استجابت له وهمست له: "أحبك منذ أشهر طويلة".

ويترافقان لحضور حفل في بيت زميل في المجلة. كان المدعوون كثيرين لكن الذي فاجأ الحاضرين هو أن أحد العاملين في قسم الطباعة بالمجلة بعد أن ملأ قدحه بالويسكي التفت إلى إدريس وخاطبه بحقده الصهيوني الواضح: "- أنت إدريس، لتعلم كتاباتك معرفة، تبعث على الغثيان،تحاول تلميع صورة العربي من خلال ما تدعيه حضارة الشرق.أنت دجال. متى كان للعرب وللشرق عموما حضارة حتى ينقلها عنهم الغرب؟".

وكان منطلق غضبه العلاقة بين ايستر وإدريس وهنا تتدخل ايستر وتقول: "- إنه يهودي، متزمت، عرقي". ووسط ذهول الحاضرين الذين لم يتوقعوا هذا الجواب من إبنة أخت صاحب مجلة صهيونية فتضيف متابعة: "- أجل، يهودي متزمت، عرقي وعنصري وحقود، أنا أيضا يهودية لكنني أشجب كل أنواع التعصب العرقي والمذهبي والديني".

ولكن وسط سعار الحقد والكراهية أي مكان لهذا التعليق؟ يقول إدريس في مذكراته عن حالته آنذاك: "صاروا جميعا يلوكون نفس الموضوع. أما أنا فلم اعثر على رأي أشارك به، أنا المعني بالأمر، أنا الظاهرة التي عليهم بحثها. اليهودي لم يرضه أن أكون عشيقا لايستر ولا أي عربي سيرضيه ذلك".

وتكون خاتمة أوراق إدريس بسؤال هو:" لكن أنا هل أملك حرية التصرف مستقلا عن كياني ؟ ظل هذا التساؤل يتردد بداخلي دون أن أجد له جوابا".

-9-

يروي الطبيب أنه بعد سنوات كان قد عاد مريضا في مستشفى المدينة ثم أوقف سيارته أمام مقهى"غرناطة" في مدينة "القصر الكبير" و أخد مكانه صحبة زميل له وإذا برجل "رث الثياب... كل مظاهر الشفقة تتجلى في هيئته وأسماله" وناداه باسمه "بصوت لم يكن غريبا على أذني".

وعندما عاد الصوت "وعدت لتأمله انفجر بركان في داخلي هز كل مشاعري وأتلف الدنيا من حولي. فبالرغم من هزاله ومن مرض البرص الذي شوه ملامحه وانتشر في يديه ووجهه عرفت أنه إدريس". وكان كل ما فاه به إدريس هو: "أنا أريد جواز سفري لأعود إلى لندن فقد تركت ابنتي هناك، أخذوها مني، اتفقنا؟"

هنا ينبت سؤال: هل ابنته من ايستر؟ وقد أخذوها منه على اعتبار أن اليهودي ينتمي لأمه لا إلى أبيه، هذا هو الجواب المرجح، وبعد هذا للصهاينة وسائلهم في الاستحواذ على جواز سفره أو إخراجه بتهمة ما من أي بلد؟ ولكن لماذا أصابه مرض البرص؟ وكيف؟ وهل هذا أمر متعمد للقضاء عليه وعلى أفكاره؟

كان قدومه للمقهى وسط جو ممطر، وبعد أن أخذ علبة السيكائر من صديقه الطبيب تسلل من المقهى وأطلق ساقيه جاريا وسط الأمطار...) وحاول الطبيب اللحاق به حتى أن نظارته الطبية سقطت منه فداسها بقدميه وعجز عن ذلك.

ثم لحق به زميله الطبيب رفيق جلسته وهو يقوده إلى مقهى "بلاطا" –لاحظوا اهتمام الروائي بأسماء الأماكن- وهناك كان جسد إدريس "مسجى فوق حصير بعد أن عثر على جثمانه بين مخلفات جرفتها مياه باب الواد".

وبهذه الجملة تنتهي الرواية، ومعها يتسع السؤال الذي همس به إدريس لصاحبه وهو يسلمه أوراق مذكراته عندما قال: " وأنا أدون مذكراتي لم أضع نصب عيني أي سؤال، فقد كتبت لمجرد إفراغ أحاسيس متخفية بداخلي لأقلل من شعوري بالوحدة. لكنني وبعد أن عدت لقراءتها وجدت أنها في مجموعها تثير سؤالا محيرا!".

عمل روائي كبير، محير ومثير للأسئلة الغامضة، يؤكد أن الرواية الكبيرة لا يكتبها إلا المثقف الكبير الواعي بعصره وإبداعاته، ونتمنى من الدارسين والنقاد أن يبحثوا عن رواياتنا العربية العربية الفذة من طراز "البعيدون" وأن يتوقفوا عن "ملاحقة" أعمال لولا مواقع أصحابها الحزبية أو الإعلامية لما

كانت تعني شيئا. لابد من الكشف والإكتشاف لنبعد ركامات الرداءة المكرسة.إن هناك رواية عربية شامخة تنمو لتغطي على أعشاب البعض الصفراء أشواكهم اليابسة وتزويرهم المريض.

تبقى مسألة أثارتها هذه الرواية الممتعة هي أن العلاقة بين الشرق والغرب ليست (دائما) وإن كانت (غالبا) حالة تقاطع على اعتبار (أن الشرق شرق والغرب غرب ويتعذر عليهما أن يلتقيا).

فإذا كان بطل رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" وبعد كل صولاته وجولاته في بريطانيا يجد البديل في العودة للعيش في إحدى القرى ويتزوج من امرأة لا تعرف بداياته الفكرية وخبرته في المرأة والحياة، امرأة تكاد تجهله تماما.

فإن بطل رواية الطود "إدريس" غادر لندن مرغما، أو أبعد عنها قسرا، أخذوا منه ابنته وجواز سفره ورموه خارج حدود بلدهم، ولم يعد له في وطنه الأصلي أي رابط غير الإسم والسحنة وربما الدين، فقد يكون قد غير كل شيء ليكون كما أراد المجتمع الصحفي الصهيوني الذي انخرط فيه سواء عن طريق المستر كورت (جاكوب) مدير مجلة "فواصل" التي يكتب فيها مقالاته أو ابنة أخته "ايستر" التي لم يفصح لنا الكاتب إلى أي حد وصلت علاقته بها. وربما من هنا جاء اسم الرواية "البعيدون"، وأحدهم "إدريس" الذي صادره العالم الذي هاجر إليه، لقد ابتعد تماما.

لكن إدريسا ظل قريبا حتى في بعده وابتعاده بدليل أنه عاد إلى أرضه الأم ووطنه الذي ولد فيه لا إلى الوطن الآخر الذي خرج منه وهو مصاب بالبرص، وقد انتزعت منه ابنته وجواز سفره "هذا حصاده من الغرب حلمه".

أذكر هنا رواية فذة كتبت باللغة الأنجليزية أصلا هي "خارطة الحب" للكاتبة المصرية أهداف سويف التي تمسح بها القرن العشرين كاملا والعلاقة بين بعض المصريين –وخاصة من الأسر المتنفذة اقتصاديا وسياسيا- والغرب. وما فيها من تداخلات الروابط والمصاهرة، ومساحتها من مصر إلى بريطانيا وفرنسا وأمريكا وتركيا.

نأمل من صديقنا الروائي المحامي –لا المحامي الروائي- الطود أن يواصل تجربته الروائية وأن نقرأ له أعمالا جديدة أخرى تثري رصيد الرواية العربية كلها لا المغربية فقط.